

تاريخ القبول: XXXX/XX/XX

تاريخ الإرسال: XXXX/XX/XX

تاريخ النشر: XXXX/XX/XX

دور علماء الدين الإسلامي في الحفاظ على الهوية الإسلامية بالصحراء.

The Role of Islamic Religion Scholars in Maintaining, The Islamic The Identity in The Sahara.

فاروق ابليلة¹، أحمد الحمدي²جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، bleilafarouk1977@gmail.com¹جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر)، elhamdi@univ-adrar.edu.dz²

الملخص:

يطرح هذا المقال إشكالية النوازل الفقهية في بلاد الصحراء الكبرى وعلاقتها
بالهوية الإسلامية في تلك البلاد وكيف استطاع العلماء بفضل اجتهادهم وإجاباتهم
على مسائل الناس وقضاياهم الملحة ترسيخ الإسلام فهما وعملاً واعتقاداً بالرغم من
صعوبة الحياة الاجتماعية والاقتصادية من جهة ومن جهة أخرى محاولات المسخ
التي يحاول الاستعمار فرضها بين الحين والآخر.

ومن خلال النماذج التي اخترتها لدراسة هذا الموضوع ومن أبرزهم الشيخ
المختار الكنتي الكبير تبين أن العامل الرئيس في بقاء تلك البلاد على الإسلام هو
أجيال العلماء المتابعة الذين حفظوا العلم الشرعي ونقلوه كابراً عن كابر، وجعلوا
منه حقيقة ثابتة على مر العصور، وسلوكاً حياً حاضراً في حياة الناس بما أفتوا به
وقضوا وعلموا، فكانوا الحصن المنيع ضد كل محاولات التصيير والتشويه فحفظوا

نقاء الإسلام فهماً وعملاً وبقاءه ملّة واعتقاداً في صدور الناس ما أذن الله عز وجل بذلك.

الكلمات المفتاحية: النوازل الفقهية – نوازل الصحراء الكبرى – الهوية الإسلامية بالصحراء الكبرى – النوازل الفقهية بالسودان الغربي – الشيخ المختار الكنتي الكبير.

Abstract:

The summary of essay in English: Abstract: This essay shows the problem of Jurisprudential incidents in the Sahara region in a relation to the islamic identity there. It shows how scholars managed to firm up Islam theoretically, practically and with faith, thanks to their diligence and answers to people's questions and urgent issues. They did so despite the roughness of life socially and economically as well as attempts of metamorphosis that was imposed occasionally by colonization. According to the model scholars I've chosen to study this theme, like Sheikh Mokhtar kounti L'kebir, I found out that the successive generations of these scholars was an essential factor for Islam to remain there. they maintained the islamic science and conveyed it from a scholar to another. Besides, they made it as a constant truth though out periods of time and as an alive vivid behaviour in people's life. That was because of what the scholars answered, judged and educated. Thus, they were a bridge against all sorts of Christianization and distortion. Therefore, they managed to maintain the purity of Islam theoretically and practically. They preserved it as a religion and as a faith within people's hearts if God willing.

Keywords:

Jurisprudential incidents _ The Sahara's incidents _ the islamic identity in The Sahara – The Jurisprudential incidents in west Sudan – Cheikh Almoukhtar-Alkounti Alkabir

المؤلف المرسل: فاروق البليلة، BLEILAFAROUK1977@GMAIL.COM

1. مقدمة:

تجنح كل المجتمعات البشرية إلى الحفاظ على هويتها؛ لأن ذلك سر بقائها واستمرارها، ولما كانت المجتمعات الإسلامية أكثر وعياً بهذا الأمر، استمسكت بمصدري الهداية وأصل العصمة وهما القرآن والسنة، فكانا ولا زالا الملاذ والمخرج لأمة الإسلام من كل ضيق وهم وكرب، وقد تناولهما العلماء عبر الأجيال -من لدن عصر النبي صلى الله عليه وسلم- بالتعقل والاستنباط والتنزيل محاولة للتحقق بالشرع الصحيح الذي يضمن نقاء وبقاء الإسلام وأمتة إلى يوم الدين.

وبعد أن من الله على الأمة بالفتوحات العظيمة، اعتنق أهل الأمصار الإسلام وأحبوه وتعلموه وعلموه أبناءهم وحكموه بينهم، لما وجدوا فيه من الحق والرحمة والعدل، ومن جملة هؤلاء أهل الصحراء الكبرى، وعلى الرغم من صعوبة بيئتهم وظروف معيشتهم، فقد اهتموا بتعلم الإسلام وأحكامه حتى بلغ منهم من بلغ الحق بذلك، فحفظوا وبلغوا وأفتوا على مقتضى الحال والمقام، فمكنوا للإسلام في تلك البلاد وخلفوا لنا ثروة فقهية عظيمة فيما يعرف بفقه النوازل، وقبل أن أتكلم على تلك الثروة العلمية الثمينة لا بد من بيان المقصود بالنوازل وماهيتها.

2. التعريف بالنوازل الفقهية:

1.2 تعريف النوازل لغة:

النوازل في اللغة جمع نازلة وهي المصيبة الشديدة تنزل بالناس، وتجمع أيضاً نازلات 1 والنزول: الحلول 2 والوقوع وهذا يعني أنها ما ينزل بالناس من أحداث ووقائع شديدة أو مما لم يسبق لهم به عهد فتصيبهم بالذهول والحيرة، ومن أمثلتها ما ينزل بالناس من جذب وقط وحرب وفتن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ﴾ 3.

2.2 النوازل الفقهية اصطلاحاً.

إن كلمة النوازل الفقهية مركب إضافي وهذا يعني أن المقصود بالدراسة من النوازل ما كان متعلقاً بالأمر الفقهية⁴ العملية لا العقديّة العلمية ولا اللغوية أو غيرها، ولا نكاد نجد لمن سبق من العلماء تعريفاً حدياً لمعنى النازلة، ولكن وردت للمتأخرين عبارات تبين معناها ومن ذلك :

- ما ذكره ابن عابدين فقد عرفها بأنها: الفتاوى والواقعات وهي ما استنبطه متأخرو المذهب من مسائل لما لم يجدوا له رواية عند متقدميهم وهم أصحاب أبي يوسف ومحمد وأصحاب أصحابهما وهلم جر عندما سئلوا عن ذلك⁵.

- وعرفها الدكتور وهبة الزحيلي بقوله: المسائل أو المستجدات الطارئة على المجتمع بسبب توسع الأعمال، وتعدد المعاملات، والتي لا يوجد نص تشريعي مباشر، أو اجتهاد فقهي سابق ينطبق عليها وصورها متعددة، ومتجددة، ومختلفة بين البلدان أو الأقاليم، لاختلاف العادات والأعراف المحلية⁶.

- وعرفها الدكتور مصطفى الصمدي بأنها: المسائل والقضايا الدينية والدينية التي تحدث للمسلم ويريد أن يعرف حكم الله فيها⁷.

- وشاع عند الفقهاء عامة إطلاق النوازل على القضايا والوقائع الجديدة التي لم تبينها النصوص وليس فيها حكم شرعي معروف وإنما هي مما استجد في حياة الناس فأوجب الاجتهاد على أهله في ذلك الوقت وهذا ما نلمسه من كلام ابن عبد البر باب اجتهاد الرأي على الأصول عند عدم النصوص في حين نزول النازلة⁸.

- هذا وإن كانت النوازل في أصل إطلاقها تعني الوقائع والمسائل الجديدة فقد غلب استعمالها على الكتب والمدونات الفقهية التي جمعت مسائلها وأحياناً سموها بالفتاوى كفتاوى ابن رشد أو المسائل كمسائل أبي العباس أحمد بن حسن المعروف بابن قنفذ⁹، أو سموها بالأجوبة كأجوبة القباب وأجوبة الشيخ المختار الكنتي والموسومة بعنوان: "الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همة".

- وإن كل هذه الاصطلاحات لها معنى واحد وتحمل دلالة واحدة وهي أن هذه الشريعة شريعة حية ومتحركة وناضجة بالحياة وأنها مواكبة للتطور البشري¹⁰ دائماً

وأبدأ؛ حيث أجابت على أسئلة الناس وحلت قضاياهم وفرجت كربهم وحللت أحداث حياتهم وجعلتها متزامنة ومتماشية مع أحكام الشرع.

2.3 التعريف بنوازل الصحراء الكبرى وبيان أهميتها:

حيثما وجد الإنسان المسلم الحريص على دينه الذي يهيمه أمر صلاح عبادته وكونها موافقة لأحكام الشرع وجد المستفتي، وكان من الواجب كفاية على المسلمين أن يكون منهم من يتصدى لهذه الفريضة الشرعية بالجواب وهو المفتي، لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ 11 فوجود الفتاوى والأجوبة لصيق بوجود الحياة الإسلامية إن في الحاضرة أو البادية.

ولهذا فإن أول من قام مقام المفتي في الناس هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يجيب عن كل ما يرفع إليه من المسائل والأقضية إن بوحى أو اجتهد، واجتهد من بعده صحابته رضوان الله عليهم كأبي بكر الصديق وأكثر الصحابة اجتهدا وإفتاء عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس غيرهم 12 وخلفهم في ذلك زمرة صالحة من التابعين وتابعيهم بالإحسان علما وعملا ووقوفاً على المنصوص واجتهاداً؛ حيث لا منصوص، واستمر الاجتهاد والفتيا هكذا جيلاً بعد جيل.

ونظراً لحاجة الناس للفتوى كحاجتهم لما تقوم به أصلابهم من طعام وشراب كثرت الفتاوى وتعددت بتعدد المذاهب فكتب أنصار كل مذهب دواوينهم الخاصة فكثرت الفروع والمسائل؛ فجاء متأخرو المذاهب فهالهم ما كتب فعمدوا يختصرون المطولات تارة، وتارة أخرى ينظمونها، وأصبح علم الفتوى علماً مستقلاً وأحد أهم فروع الفقه، فهو يمثل الجانب العملي التطبيقي التنزيلى من الفقه بوجه عام.

وتعد كتب النوازل من أكثر الكتب تعبيراً عن التوجه المذهبي والتزاماً به وأكثر إفصاحاً عن أصول المذهب وقواعده 13.

إن الصحراء الكبرى مكان فسيح وسكانه يعيشون متفرقون في أرجائه ولا تكاد تجد الاجتماع البشري الكبير منهم إلا في حواضر تعد على الأصابع كتمبكتو 14 وجني 15 وقاو 16، فكانت حاجتهم لقيام المفتي فيهم شديدة سواء حلوا أو ارتحلوا. وحينما نتكلم عن النوازل الصحراوية، لا نقصد أنها نوع مختلف من النوازل لا نظير له؛ وإنما متعلق الأمر أن النوازل بطبيعتها تصطبغ بصبغة الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، ولهذا فإن اختلافها هو اختلاف مرجعه خصوصية من تنزلت عليه حالاً وزماناً.

قرر فقهاؤنا أن الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان والحال فيكون الشيء مقبولاً في مكان دون مكان آخر وفي حال دون حال أخرى، وعلى وجه دون وجه آخر، ولا شك أن بعضاً من أحكام البادية تختلف عن أحكام الحاضرة، وذلك لأنها مصطبغة بأحوال البادية وخصائصها، ولهذا كتب الشيخ محمد المامي كتاباً رائعاً في هذا الباب سماه "البادية" حاول أن يستبين فيه بعضاً من أحوال البادية لم يسبق إليها. إن المدرسة النوازلية الصحراوية المالكية ليست ببعيدة من نظيرتها التواتية أو المغربية أو الأندلسية، فالمذهب واحد والمدرسة واحدة ومنهج التدريس نفسه وهذا ما تشهد به المقررات والأصول المعتمدة في التدريس اللغوي والفقه هناك وسيظهر هذا جلياً من خلال الصفحات القادمة في هذا البحث .

3. بعض أهم نوازل الصحراء الكبرى ومؤلفيها و بيان دورهم الحضاري في الحفاظ على هوية الأمة.

تعد النوازل بشكل عام وفي الغرب الإسلامي بشكل خاص سجل حافل لجوانب كثيرة من جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فهي تتناول أهم القضايا الفكرية والعملية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وتكشف عنها بما يعطي صورة حقيقية عن التاريخ الدقيق لتلك البلاد، ويبرز مدى التزامها بالإسلام حكماً وقضاء، ولذلك سنحاول الكشف عن هذه الحقيقة من خلال ذكر بعض النماذج التي كرست حياتها للعلم والعمل فأثرت في الحياة السودانية العامة في الصحراء، وحافظت على الهوية الإسلامية بما درست وألفت وأفتت.

1.3 نوازل احمد بابا التنبكتي ت 1036هـ:

هو الفقيه أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت رحمهم الله جميعاً كلهم فقهاء أبوه وجده، جد واجتهد في طلب العلم حتى فاق جميع معاصريه وشهد له بالعلم أشياخه أهمهم أبوه أحمد وعمه أبوبكر والعلامة محمد بغيغ¹⁷.

كان لا يهاب أن يقول كلمة الحق، فأسره السعديون لما سيطروا على تمبكتو ونقلوه إلى مراكش وأفرج عنه بعد سنتين في 1004هـ، وبقي لأحدى عشر سنة يدرس مختصر خليل والألفية للعراقي وغيرها بمراكش و بجامعها الشرفاء، وبلغت شهرته الآفاق حتى قدم عليه بعض الطلبة الجزائريين وقالوا له: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط¹⁸.

وإن الذي يهمننا في هذه اللفته أن أحمد بابا رحمه الله كان بصيراً بالفتوى، وهذا ما جعله قبلة المستفتين في مراكش كلها وما حولها قال عنه صاحب فتح الشكور: واشتهر في الغرب أمره وانتشر ذكره وسلم له علماء الأمصار في الفتوى¹⁹.

ومن أبرز نماذج النوازل التي أفتى بها الفقيه أحمد بابا حكم تملك مجلوب السودان إلى منطقة توات رداً على سؤال ورد إليه من سعيد بن إبراهيم الجزائري²⁰ التواتي فأجاب عنها بأن أغلب هؤلاء أسلموا طوعاً ولم تفتح أرضهم عنوة والحال أن الشرع يحرم استرقاق المسلم ما لم يكن إسلامه طارئاً على كفره، كما أن بجانبهم كفره يغيرون عليهم أحياناً وربما أغار بعض المسلمين على بعض وسبى بعضهم بعضاً، وبيع المسلم وهو حر فإننا لله وإننا إليه راجعون²¹.

ومن مؤلفاته 22:

له تأليف عديدة تزيد على الأربعين كتاباً - أهمها نوازله- ومنها:

- معراج الصعود في حكم مجلوب السودان.

- الكشف و البيان لأصناف مجلوب السودان.

- الأجوبة والأسئلة المصرية.

- اللمع في الإشارة في حكم طبغ.

- أنفس الأعلاق في فتح الاستغلاق من كلام خليل في درك الصداق.
- وكتاب شرح الصدور وتتوير القلوب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من الذنوب.

- نيل الأمل في تفضيل النية على العمل شرح فيه نية المؤمن أبلغ من عمله.

- ونيل الابتهاج بالذيل على الديباج.

- كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج.

2.3 نوازل محمد بن المختار بن الأعمش العلوي ت 1107هـ:

هو محمد بن المختار بن الأعمش بن يعقوب بن أبجه بن يحيى، فقيه متميز من قبيلة العلويين، كان قاضي شنقيط وعالمها بلا منازع، ولد سنة 1036هـ في نفس العام الذي توفي فيه أحمد بابا فقالوا مات عالم محقق وولد آخر.

أخذ عن عمر الولي بن الشيخ محمد عبد الله المحجوبي الولاتي، وعن عبد الله بن محمد بن حبيب العلوي المعروف بقاضي البراكنة، وعن الشيخ سيدي أحمد أبو القاسم بن أحمد بن الحاج الوداني، وعن عالم المدينة المنورة إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين، ومن شيوخه الذين أعجب بهم الشريف الفاسي المعروف بالشاب الشاطر²³.

أسس العلامة محمد بن المختار بن الأعمش محاضرة كبيرة بمدينة شنقيط، أخذ عنه فيها العديد من الأعلام من أشهرهم محمد بن أبي بكر بن الهاشم الغلاوي، وعثمان بن عمر بن المحجوب الولاتي، وعبد الله بن أبي بكر بن علي بن الشيخ المحجوبي²⁴.

ورغم شهرته إلا أن صاحب فتح الشكور لم يفرد له ترجمة مع أنه ذكره في الكتاب مرة بعد مرة وهو ما لاحظته عليه خليل النحوي²⁵.

ومن مؤلفاته:

- "فتوحات ذي الرحمة والمنة في شرح على إضاءة الدجنة" وهو من أنفس شروح الإضاءة وكل من قال: قاله الشارح فإنما يعني محمد بن المختار بن الأعمش العلوي قاله صاحب الوسيط.

- شرح على فريدة السيوطي.
- نظم مغني اللبيب في النحو.
- روضة الأفكار في علم الليل والنهار.
- تأليف في البيان.
- رسالة في الدماء.
- وله نوازل في الفقه مجموعة 26، قال عنه صاحب الوسيط: "إنه أول من أجاد من أهل تلك البلاد في تصنيف النوازل، وكان من ألف فيها ينقل عنه" 27.

3.3 نوازل الفقيه الشريف سيدي محمد بن فاضل الشريف ت 1160هـ:

هو الفقيه الشريف سيدي محمد بن فاضل الشريف المتوفى سنة 1160هـ، رفيع الدرجة في العلم من العلماء المحققين، فقيه متقن بصير بالفتوى رحمه الله عز وجل، له حظ من النحو واللغة. أخذ الفقه عن الفقيه الحاج الحسن بن آغيد الزيدي، وأخذ عنه ابن أخته الفقيه الشريف أحمدنا لله بن الشريف أحمد بن الإمام وغيره.

من مؤلفاته:

من أهم تأليفه فتاويه المجموعة وهي فتاوى في غاية الجودة والإحسان تتميز بالاختصار، قال عنه صاحب الفتح: انتهت إليه رئاسة الفتوى وانتفع الناس بها، وعليه مدار الفتيا و الفقه في زمنه 28.

منهجه في الإفتاء:

للفقيه محمد بن فاضل الشريف رحمه الله منهج في الإفتاء جيد، فهو لا يكتفي فيه بمجرد ذكر الفتوى فقط؛ وإنما يبين مأخذه، ويدعم جوابه بالنص الصريح الصحيح المشهور كنص ابن الحاجب وأبي المودة وغيرهما، وإذا لم يجد نصاً في النازلة ربما أجاب عنها بمقتضى النظر الفقهي، فيكون ما أجاب به صحيحاً موافقاً لكل من له بصيرة بالفقه، وتتميز فتاواه بالاختصار ولا يزيد في الجواب عن الحاجة إلا لزيادة حكم أو بيان.

وقد بلغ الغاية القصوى في اهتمامه بمختصر خليل وتمكنه منه، حكي عنه أنه قال: فما تكون مسألة إلا وحكمها يؤخذ من مختصر خليل رحمه الله إما من منطوقه وإما من مفهومه، ومن أمثلة ما أفتى به من هذا القبيل تحريم اشتراء الدواب التي عليها وسم الزوايا من الأعراب المستغربي الذم الذين من عادتهم جمع المال من حله وغير حله، ولما سئل عن وجه ذلك من المختصر قال: قد أخذته من قول خليل: وختن مجلوبها فإذا كان من عيوب المجلوب التي تمنع شراؤه من هؤلاء الأعراب كونه مختوناً، فإنه من عيوب الدواب التي يمنع شراؤها منهم كونها موسومة بعلامة فلعلهم أخذوها اعتداء وظلماً 29.

4.3 نوازل الشيخ المختار الكنتي الكبير ت 1226هـ:

اسمه هو المختار بضم الميم وتسكين الخاء وفتح التاء، ولا خلاف على اسمه ففي كل المصادر التي ذكرته لم يرد غير ذلك إلا ما يضيفه النساخ من اسم سيدي وهو عرف سائد في هذه البلاد كما أنه دلالة التقدير الذي طالما حظي به المشايخ ومنهم الشيخ المختار، وهذا موجود في مقدمة جميع النسخ التي اعتمدت عليها. أما نسبه فهو المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن عمر بن أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي وينتهي نسبه إلى العاقب بن عقبه بن نافع الفاتح الإسلامي الكبير لبلاد المغرب والسودان 30، ويعارض هذا ما ذكره صاحب الوسيط أيضاً من أن نسابي الصحراء يثبتون أن نسب كنتة من بني أمية لكن يمكن الجمع بينهما بأن الشيخ من كنت بطريق الموالاة لا النسب 31.

ولد الشيخ سيدي المختار الكبير سنة 1142هـ - 1729م، بمكان يسمى كثيب أغال بالأطراف الشرقية لبلاد شنقيط، جنوب الصحراء الكبرى بالقسم المعروف بأزواد 32، وهو حالياً تابع لجمهورية مالي من الناحية الإدارية، ونشأ المختار على عادة أهل الصحراء في تنشئة أولادهم، في بيئة صحراوية تقليدية بدوية، وبما أنه من أسرة عرفت بالعلم والصلاح والتقوى لعقود من الزمن فلا شك أن ذلك مما يتجلى على شخصيته، حتى أن المقربين منه كانوا يتوقعون له مستقبلاً طيباً لما يلوح عليه من علامات النبوغ والذكاء 33، وإن كان نشأ يتيماً؛ لأن أمه أمباركة بنت بادي

توفيت وهو ابن أربع سنين، وتوفي أبوه وله من العمر عشر سنين، فترى في كفالة أخيه لأبيه 34، إلا أن ذلك لم يمنعه من المضي في طلب العلم والإقبال عليه بنهم حتى فاق أقرانه في مجالسة الشيوخ والأخذ عنهم.

نشأ المختار كما كان عامة أهل البدو على تعلم القرآن الكريم على يد أخيه لأبيه وعلى جده لأمه، ولم تتقد همته لطلب العلم إلا بعد موقف وقع له حينما بلغ من العمر ثلاثة عشرة سنة، كان مع بعض الصبية من قومه فوقفوا على عبيد زنج يفتلون الحلفاء 35 فتناول كل صبي حبلاً من يد عبد يقتله من باب اللهو، ولما أراد المختار أن يتناول كما فعل الآخرون قال له العبد ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت! فقال المختار: فكأنما أرسلها سهماً في نفسي فقلت له: ولماذا خلقت وبماذا أمرت؟ قال: خلقت لمعرفة ربك وعبادته وأمرت بتعلم العلم وطلبه 36.

وبعد هذا الموقف -الذي إن دل على شيء فإنما يدل على حس مرهف وقلب واع منذ ذلك الوقت لدى هذا الصبي الصغير- فقد صوب القصد وشد العزم وأعلى الهمة وشمر على ساعد الجد وأخذ ينهل من كل علم يلقيه إليه شيوخه ويسابق الزمان حتى لا يضيع منه شيء، فكأنما تراءى له ما سيكونه في القريب العاجل عالماً جليلاً تشد إليه الرحال ويهاهب الأمراء والسلطين وتدين له الدنيا، فأمسك عصي الترحال وألقى بنفسه في مغامرة الطلب وهو حدثٌ صغير يؤمل النجاح ويخشى الفوات .

4. المقررات العلمية بالصحراء الكبرى .

إن من يقرأ ويتابع ما أبدعه علماء الصحراء من خلال الصفحات السابقة في هذا البحث يدرك يقيناً، أنهم كانوا صناعة معلمين أفاض أعانهم على تلك الصناعة مناهج علمية متينة راسخة شاملة معتدلة، ولست المناهج إلا كتب الدرس القرآني والفقه لأئمة ومتقدمي علماء المذهب المالكي وسأبرز أهم تلك الكتب التي كانت مقررة عندهم في ثلاث مجالات مهمة وهي التفسير والحديث والفقه.

1.4 المقررات في مجال التفسير:

كل الفهوم الراجعة إلى كتاب الله عز وجل يصح أن تسمى بالمعنى العام تفسير للقرآن الكريم، فالحديث النبوي هو نوع تفسير يؤكد أو يشرح بعض معاني القرآن، والفقه نوع آخر يركز على التفسير المتعلق بالأحكام العملية، وقس على ذلك، لذا يعتبر تفسير القرآن الكريم أول العلوم وآخرها في بيان ما تعلق بكتاب الله عز وجل. أما عن المقررات الدراسية المتعلقة بعلم التفسير في الصحراء الكبرى فأهمهما تفسير الجلالين 37 لصاحبيه جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، فكان الطالب أول ما يتلقى القرآن فيحفظه جيداً وبعد ذلك يلحق تفسير الجلالين لسهولة عبارته واختصاره، وإيفاءه بالمطلوب في بداية التعلم فإذا تمكن الطالب بعد ذلك أضاف إليه غيره .

2.4 المقررات في مجال الحديث:

أما في الحديث فإن من أهم الكتب المعتمدة في التدريس في الصحراء الكبرى هي موطأ الإمام مالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم وكتاب الشفا للقاضي عياض، ولعلماء الصحراء أسانيد متصلة بأصحاب هذه الكتب، فيذكر أن من أئمة المحدثين الذي له سند متصل بالبخاري رحمه الله هو عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبي المتوفى سنة 1070هـ 38.

ولم يكتف البعض من علماء الصحراء بمجرد حفظ متون السنة بل خدموا تلك المتون بالشرح تارة وبالضبط أخرى فهذا الحاج الحسن بن آغبد الزيدي قد ألف منظومة مفيدة في ضبط المشتبه من رجال الصحيحين 39.

3.4 المقررات في مجال الفقه.

أما مجال الفقه فهو من أخصب المجالات التي ألف فيها علماء الصحراء بالشرح والتعليق والاختصار والنظم لأشهر المقررات الدراسية عندهم وهي تحديداً مختصر الشيخ خليل وعبادات الأخضرى والرسالة لابن أبي زيد القيرواني والمرشد المعين لابن عاشر، وقد شرح مختصر خليل خلق كثير منهم تمثيلاً العلامة القصري الإيديلي النعماوي ت 1235هـ في أربعة مجلدات، وشرحه أيضاً محنض بابه الديمانى المتوفى سنة 1277هـ في كتابيه ميسر الجليل وسماهما الميسر الكبير

أربعة مجلدات، واختصاره الميسر الصغير مجلدان، ومن شراح الأخضرى الحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي المتوفى سنة 1157م بكتابه المفيد، وقد نظمه عبد الله بن الحاج أحماء الله الغلاوي ت 1209هـ 40، ونفس الأمر ينطبق على الرسالة ومثن ابن عاشر 41.

وكما في الحديث والتفسير ففي الفقه أيضاً لعلماء الصحراء أسانيدهم المتصلة بأصحاب الكتب التي يدرسونها في محاضرتهم وهي من أثبت الأسانيد فالشيخ أحمد الوداني أخذ الفقه عن أحمد الفزاري بن محمد عن أبي العباس أحمد المسك والد أحمد بابا التبعي عن محمد بركات عن محمد بن الحطاب شارح المختصر وصولاً إلى الشيخ خليل بن إسحاق ومنه إلى الإمام مالك صاحب الموطأ⁴².

والجدير بالذكر أن هذه المقررات الدراسية الموجودة في السودان الغربي هي نفسها المقررات الموجودة في المغرب وفي إقليم توات⁴³ بسبب الاتصال الجغرافي والاقتصادي والثقافي الموجود بين هاتين الأقاليم، فالمذهب واحد وهو المذهب المالكي الذي استطاع أن ينتشر في هذه البلاد بفضل المعلمين الأوائل والقادة الفاتحين الذين جاءوا إلى هذه البلاد كعقبة بن نافع وطارق بن زياد، وبحكم الأصول الاجتهادية المرنة للمذهب المالكي التي مكنته من استيعاب قضايا الناس وحل مشكلاتهم في البدو والحضر.

5. خاتمة :

نخلص من خلال وقوفنا مع هاته الورقة البحثية للنتائج الموالية؛ حيث يظهر للناظر في تراجم هؤلاء العلماء ونوازلهم أمور أساسية هي قواسم مشتركة بين جميعهم ومنها:

- 1 - حافظ هؤلاء العلماء بفضل جهودهم وتوريثهم للعلم جيلاً بعد جيل على بقاء الإسلام ورسوخه في تلك البلاد، وهو صنيع يدل على إيمانهم العميق بهذا الدين وحبهم العظيم له ولتشريعاته.

2 - ينتمي كل هؤلاء العلماء إلى المذهب المالكي فقهاً والمذهب الأشعري اعتقاداً⁴⁴، والمدرسة الصوفية سلوكاً وعملاً، وهذا يعني وحدة الفكر والإتباع على الرغم من أنهم لا يقطنون حاضرة واحدة، فهم متفرقون هنا وهناك.

3 - لا شك عندي أن هؤلاء العلماء أضافوا إلى الإسلام كدين إضافة عظيمة جداً من حيث الدعوة إليه وتثبيت قلوب المؤمنين عليه، بما درسوه وعلموه وجعلوه حقيقة حية في سلوك الناس في بلاد الصحراء الكبرى، وإن كانوا قصرُوا عن أن يأتوا بجديد يثري المكتبة الفقهية الإسلامية كما أثارها العلماء المشاركة، ولكن يحسب لهم أنهم ألفوا جديداً، وإن كان النادر، وشرحوا مجملًا، واختصروا مطولًا، ونظموا منشورًا، ونثروا منظومًا وإن كان بعض هذا آفة الزمان الذي نشأوا فيه، فكان اهتمام الخاصة بمثل هذا- وناقشوا آراء كبار العلماء وخالفوا خلاف الكبار الذين يعتد بخلافهم في آحاد المسائل لا كلها.

4 - ولعل الشيء الذي يرفع من قدر هؤلاء العلماء و يبوؤهم المكانة الرفيعة بين أهل الاجتهاد هو ما اختصوا فيه من الإجابة على النوازل والمستجدات التي ترفع اليهم -من قبيل الاجتهاد التنزيلي الذي لا ينقطع أبداً - وما فيها من بيان لتاريخ تلك الأمم والبيئات التي عاشوا فيها، وهو نوع دراسة جديد أصبح محط اهتمام الباحثين والمؤرخين في زماننا اليوم .

6.الهوامش:

- 1 - مجموعة مؤلفين: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة للنشر، ج2، ص915.
- 2 - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ج11، ص656.
- 3 - سورة البقرة: 155.

4 - الصحيح إن إطلاق فقه النوازل يصدق على كل نازلة ولو لم تكن فقهية ويخطأ من يقصرها على الجوانب الفقهية فقط، فهناك نوازل متعلقة بالعقيدة كظهور بعض الفرق الجديدة أو بعض الصور الشريكية، كما أن هناك نوازل لغوية كتسمية بعض المخترعات الجديدة، أما

- التعبير عنها بأنها فقهية فبالنظر إلى موضوعها فحسب ينظر : مقدمة في النوازل، إيمان بنت محمد القتامي، 1433هـ - 2012م ، ص14.
- 5 - ابن عابدين: شرح النظم المسمى عقود رسم المفتي، الطبعة الأولى، 1396هـ - 1976م، سهيل أكاديمي لاهور، ج1، ص12.
- 6 - وهبة الزحيلي: سبل الاستفادة من النوازل والفتاوى والعمل الفقهي في التطبيقات المعاصرة، دار المكتبي للطباعة و النشر، دمشق، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2001م، ص9.
- 7 - مصطفى الصمدي: فقه النوازل عند المالكية تاريخاً و منهجاً ، مكتبة الرشد- ناشرون، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى 1428هـ - 2007م ص13.
- 8 - ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1414هـ - 1994م ج2، ص844.
- 9 - نوازل الزجلوي دراسة وتحقيق ، محمد جرادي ،رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، للموسم 1431-1432هـ/2010-2011م ، ص 16.
- 10 - ينظر : مصطفى الصمدي: فقه النوازل عند المالكية تاريخاً ومنهجاً ، ص17؛ وينظر أيضاً : تقريب الأمل البعيد في نوازل أبي سعيد ابن لب الغرناطي، تحقيق حسين مختاري وهشام الرامي، دار الكتب العلمية ببلن ان ، ج1، ص37.
- 11 - سورة التوبة : 122.
- 12 - ينظر: ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين اعتنى بها صدقي محمد جميل العطار، دار الفكر 1424هـ - 2003م، ج1، ص 9 و 10.
- 13 - محمد جرادي: نوازل الزجلوي، ص16.
- 14 - تمبكتو : وهي تسمية حديثة وكان يقال لها تنبكت وتينبكتو هي مدينة بناها ملك يدعى منسا سليمان عام 610 على بعد اثني عشر ميلاً من أحد فروع النيجر، ينظر: وصف افريقيا ، الحسن الوزان، ص165.
- 15 - جني: هي ثاني حواضر بلاد السودان الغربي وتقع الى الجنوب الغربي من تمبكتو على أحد روافد نهر النيجر ينظر : توات والأزواد، ص41.

- 16 - قاو: ذكر البكري أنها أسست حوالي 1068هـ - 1657م وقال: إن أهلها مسلمون بها ملح وودع ونحاس وهي أكثر بلاد السودان ذهباً وحولها معادن الحجر ينظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا و المغرب، نشره ديبسلان ط الجزائر 1857، ص193.
- 17 - ينظر: البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص31؛ بلاد شنقيط المنارة والرباط، الخليل النحوي، ص503.
- 18 - ينظر: الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص 503.
- 19 - البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص 35.
- 20- جاء في معراج الصعود لأحمد بابا أن اسمه الجراي لا الجزائري، وهو خطأ من حقق النص، لأن ما ورد في النسخة المعتمدة عليها يخالف ما ورد في النسخة الأم الموجودة في تمنطيط بمنطقة توات ينظر: مجلة الحضارة الإسلامية، العددان 22-23، جامعة وهران، مقال تحديد وضعية عبيد توات من خلال الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان الحمدي أحمد، ماي 2014، ص437.
- 21 - أحمد بابا التتكتي: معراج الصعود، تحقيق: فاطمة الحراق وجون هانويك، الناشر: معهد الدراسات الإفريقية الرباط، الطبعة الأولى: 2000، ص77.
- 22 - ينظر: المرجع نفسه، ص 36.
- 23 - ينظر: تاريخ بن طوير الجنة، ص48 الهامش رقم 25؛ حياة موريتانيا، الحياة الثقافية، ص205؛ بلد شنقيط المنارة والرباط، ص 227.
- 24 - حياة موريتانيا الحياة الثقافية، ص 205.
- 25 - بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص227.
- 26 - ينظر: المرجع نفسه، ص227؛ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي، ص578.
- 27 - الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص578.
- 28 - ينظر: الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص514؛ فتح الشكور 124، 125.
- 29 - ينظر: البرتلي: فتح الشكور، ص125.
- 30 - ينظر: أبي بكر بن أحمد المصطفى: منح الرب الغفور، ص 86؛ وينظر: فتح الودود شرح المقصور والممدود، المختار الكنتي، تحقيق: مأمون محمد أحمد، الناشر: مكتبة

- الثقافة الدينية بالقاهرة، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م، ص9؛ الوسيط في ترجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي، ص361.
- 31 - احمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص 361.
- 32 - المختار الكنتي : فتح الودود شرح المقصور والممدود، ص 9؛ آل كنتة، محمد الصالح حوتية، دار الكتاب العربي، القبة الجزائر، الطبعة الأولى 2008، ص 230.
- 33 - ينظر: المختار الكنتي: فتح الودود، ص 10.
- 34 - الحمدي أحمد: المختار الكبير الكونتي، ص 94.
- 35 - محمد الخليفة: الطرائف والتلائد، ص35.
- 36 - ينظر: المرجع السابق، ص 95.
- 37 - ينظر: الحمدي أحمد: المختار الكبير الكونتي، ص 51.
- 38 - المرجع نفسه، ص 55.
- 39 - البرثلي: فتح الشكور، ص88.
- 40 - ينظر: حياة موريتانيا، الحياة الثقافية، ص 6 وما بعدها.
- 41 - ينظر: المرجع نفسه، ص 8 وما بعدها.
- 42- ينظر: الحمدي أحمد: المختار الكبير الكونتي، ص 55.
- 43 - محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج1، ص270.
- 44 - حياة موريتانيا، الحياة الثقافية، ص 32.